

حين ينسج الذكاء خيوطه..
لا تُكتشف الحقيقة إلا في النهاية.

خوف

صمت

تلاعب

نظرات

تردد

الضواء

ألم

لم أعد أهرب
من كلماتي...
أصيحث أنا
"صوتي".

عقدة العمر

رواية

حمزة الحاج ببهي

• عقدة العمر : صمت الى صوت

لماذا فتحتَ هذا الكتاب؟

هل فتحتَه لأنك تبحث عن قصة؟

أم لأنك تبحث عن صوت يشبه
صوتك؟

ربما فتحته في تلك الساعة الهادئة
من الليل، حين ينام الجميع ولا يبقى
مستيقظاً غيرك وغير أفكارك. حين
تسأل نفسك بصدق: لماذا أنا هكذا؟
لماذا يجد الآخرون الكلام سهلاً وأنا
أجده معركة؟

ربما فتحته لأنك تعرف حمزة. ليس
بالاسم، لكن بالتفاصيل. تعرف ذلك
الطفل الذي كان يملأ المكان ضحكاً
ثم صمت فجأة. تعرف ذلك الشاب
الذي يجلس دائماً في آخر الصف،
بعيداً عن الأنظار.

مهما كان السبب، فأنت الآن في
المكان الصحيح. لأن هذه ليست
رواية عن التلعثم فقط. هذه رواية
عن الخوف الذي يسكن في كل واحد
مننا، يتخذ أشكالاً مختلفة، لكنه في
جوهره واحد: الخوف من أن نرى
كما نحن حقاً.

تفضّل. اجلس. وخذ وقتك.

القسم الأول: الأيام التي سبقت
العاصفة

الفصل الأول — الطفل السعيد

كانت جبال الأطلس الكبير في تلك
الأيام تبدو لحمزة وكأنها حدود العالم.

لم يكن قد سافر بعيداً، ولم يكن قد
رأى مدناً كبيرة بضجيجها وزحامها.
كل ما يعرفه هو هذه الجبال الشامخة
التي تحيط بالحي من كل جانب،
كأنها أسوار حماية قديمة بناها
الزمن. وكل ما يعرفه هو هذا الزقاق
الضيق الذي تصطف على جانبيه
بيوت متلاصقة كأنها تتكئ على
بعضها للدفع، وتلك الأشجار

العجوز التي تمتد فروعها حتى تكاد
تتصافح وسط الزقاق لتصنع سقفاً
طبيعياً يُظل المارة في الصيف
ويُمطر عليهم الأوراق الصفراء في
الخريف.

في هذا الزقاق، وفي هذا الحي،
وتحت هذه الجبال، كان حمزة يعيش.
وكان سعيداً.

سعادة الأطفال الذين لا يعرفون بعد
أن للحياة أسناناً. كان يستيقظ كل
صباح على صوت أمه تحرّك
الأواني في المطبخ، وعلى رائحة

الشاي بالنعناع التي تتسلل من تحت
باب الغرفة. يتناول فطوره بسرعة،
يحشو قدميه في حذائه القديم الذي لا
يُربط تماماً، ويخرج إلى الزقاق حيث
ينتظره أصحابه.

الكرة كانت قديمة ومرقعة في أكثر
من مكان، لكن أحداً لم يشك.
والملاعب كان الزقاق نفسه، والأعمدة
كانت حجارة يضعونها على الأرض.
وحين تسقط الكرة في حديقة الجار
العجوز، يتراهنون بالنظرات: من
يجرؤ على الدخول لاستعادتها؟ في
الغالب كان حمزة هو من يذهب، لأنه

كان الأسرع هروباً حين يسمعون
صوت الباب يُفتح.

كان يحب المدرسة أيضاً. ليس لأنه
كان متفوقاً بشكل استثنائي، بل لأن
المدرسة كانت تعني أصدقاء وضجة
وحركة. كان يحب حصة الرياضيات
لأن الأستاذ كان يضع مسائل على
السبورة ويتحدى الفصل: من يحلها
أولاً؟ وكان حمزة يرفع يده دائماً بثقة
لا تعرف التردد. كان يحب حصة
الرسم لأنه كان يرسم ملاعب كرة
القدم ولاعبين، يكتب أسماءهم على
الهوامش. وكان يحلم، كما يحلم كل

أطفال الأطلس، بأن يصبح يوماً
لاعباً يصفق له الملعب بأكمله.

حياته كانت بسيطة ومكتملة بهذه
البساطة. البيت والمدرسة والزقاق
والكرة والأصحاب وأحلام الليل عن
ملاعب لم يرها بعد. لم يكن ينقصه
شيء. أو هكذا كان يظن.

لأن الحياة لها طريقها الخاصة في
أن تُعَلِّم. وأحياناً تختار لحظة واحدة
عادية وتجعلها حداً فاصلاً بين
عالمين. بين طفل لا يعرف الخوف
وطفل لا يستطيع نسيانه.

تلك اللحظة كانت قادمة. وحمزة لم
يكن يعلم.

الفصل الثاني — الضحكة الأولى

كان يوماً كسائر الأيام حين بدأ، ثم
صار يوماً لا يُنسى حين انتهى.

درسُ اللغة العربية. أستاذ يحمل كتاباً
ويطلب من التلاميذ القراءة بالتناوب،
واحداً بعد واحد، فقرةً فقرة. لم يكن
في الأمر ما يستدعي الخوف. فعلوا

هذا مئات المرات من قبل. جلس
حمزة في مقعده يتابع السطور
بإصبعه، ينتظر دوره باسترخاء تام،
يفكر ربما في الكرة وفيما سيأكله بعد
المدرسة.

جاء دوره.

وقف. أمسك الكتاب. نظر إلى السطر
الأول.

فتح فمه.

والكلمة الأولى لم تخرج كما أراد.

لم تخرج بطلاقة ولا بسهولة. تعثرت
في مكان ما بين صدره وشفتيه.
تكررت حروفها مرتين ثم ثلاثاً.
صار يسمع نفسه كأنه يسمع شخصاً
آخر، شخصاً غريباً لا يعرفه. يده
التي تمسك الكتاب بدأت ترتعش
قليلاً. ووجهه أحسّ بالحرارة تزحف
إليه.

ثم جاء الصوت.

ضحكةٌ واحدةٌ أولاً . خفيفة، كأن
صاحبها أراد إخفاءها فلم يستطع . ثم
ضحكة ثانية أكثر وضوحاً . ثم
همهمات وتبادل نظرات وابتسامات
مكتومة خلف أكواع الأيدي .

قال الأستاذ: «اجلس .» وطلب من
التالي أن يكمل .

جلس حمزة .

نظر إلى الكتاب أمامه دون أن يراه .
كان ما يراه هو وجوه زملائه، تلك

الابتسامات التي لم تختفِ كلياً، تلك
النظرات الجانبية، ذلك الصمت الذي
يحمل معنى أكثر مما يحمل الكلام.

مرّت بقية الحصة ببطء لا يُحتمل.
وحين رنّ الجرس وخرج الجميع
يتدافعون نحو الباب، بقي حمزة في
مقعده لثوانٍ إضافية.

في المساء، على العشاء، سأله أبوه:
«كيف كان يومك؟»

قال: «عادي.»

وفي الليل، حين انطفأت الأنوار
وانتشر الصمت في البيت كله، لم يَنم
حمزة.

بقي مستيقظاً يحدق في السقف.
والضحكات تتكرر في رأسه مرة بعد
مرة. لا تتوقف. لا تخفت. كأن أحداً
يُعيد تشغيل الشريط من البداية في
كل مرة يقترب من النوم. الكلمة التي
تعثّرت، والصوت الذي خرج غريباً،
والوجوه التي ابتسمت، والأستاذ الذي
قال: «اجلس.» كل هذا يدور ويدور
في دائرة لا نهاية لها.

ما الذي حدث له؟ لم يسبق أن حدث
هذا. لماذا تعثّرت الكلمات؟ هل
سيحدث مرة أخرى؟ وإذا حدث، هل
سيضحكون أكثر؟

أسئلة بلا أجوبة، في ليلة بلا نوم،
لطفل لم يكن يعلم أن هذه الليلة
ستصير حداً بين حيتين.

الفصل الثالث — ولادة الخوف

بعد أسبوع كان هناك درس قراءة آخر.

حين أعلن الأستاذ عن ذلك في بداية الحصة، أحسّ حمزة بشيء يتحرك في معدته. ليس جوعاً ولا مرضاً، بل شيء آخر لم يعرف له اسماً بعد. شيء بارد وثقيل يجلس في أسفل بطنه ويرفض أن يتحرك.

راح يحسب بصمت. كم تلميذاً قبله؟
كم فقرة ستقرأ قبل أن يصل الدور إليه؟ هل يستطيع أن يُقدّر الوقت؟
وحين أدرك أن دوره سيأتي حتماً ولا

مفر، بدأ يفكر في حلول. ربما
يتظاهر بالسعال. ربما يطلب الإذن
للخروج في اللحظة المناسبة. ربما
يُخبر الأستاذ أنه نسي نظارته، وهو
لا يملك نظارة أصلاً.

لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك. جلس
وانتظر.

وحين جاء دوره، وقف وقرأ. تلعثم
مرة أخرى. لم تكن هناك ضحكات
هذه المرة، لكن ذلك الصمت الثقيل
كان أشد إيلاماً. ذلك الصمت الذي
يعني أن الجميع انتبهوا.

من ذلك اليوم صار لموعد درس
القراءة طعم مختلف. صار كل يوم
يسبقه مليئاً بذلك الشيء البارد في
المعدة. صار يتمنى المرض. يتمنى
الغياب. يتمنى أي شيء يُبعده عن
لحظة الوقوف أمام الفصل.

ولأول مرة في حياته، صار يكره
المدرسة.

لم يكن يكره الدراسة. ولم يكن يكره
أصحابه. كان يكره تلك اللحظة

بالذات. لحظة أن تقف و عيون الجميع
عليك، وتشعر أن جسدك يتآمر
ضدك، وأن صوتك يرفض أن يخرج
كما تريده، وأن الكلمات التي تعرفها
جيداً تتحول فجأة إلى أحجار في
فمك.

وهكذا، بهدوء وبدون إعلان، في
فصل دراسي عادي في جبال
الأطلس، وُلد شيء جديد في داخل
حمزة.

لم يكن التلثم.

التلثم كان مجرد العَرَض.

ما وُلد كان أعمق وأخطر وأصعب
في المواجهة.

وُلد الخوف.

القسم الثاني: سنوات الظل

الفصل الرابع — السجين

الصمت في البداية يبدو حلاً معقولاً.

منطقه بسيط وواضح: إذا لم تتكلم،
لن تتعثر. وإذا لم تتعثر، لن يضحك
أحد. وإذا لم يضحك أحد، لن تشعر
بذلك الألم الذي جلس في صدرك منذ
تلك الحصة ولم يغادر. المعادلة
بسيطة والتمن يبدو مقبولاً في البداية.
تتنازل عن بعض الكلام وتحصل
على الأمان.

لكن الصمت له طبيعة خاصة. يتمدد.

بدأ في الفصل. حين يسأل الأستاذ
سؤالاً ويعرف حمزة الإجابة، يبقى
صامتاً. يتركها تدور في رأسه،
صحيحةً وواضحة، لكنه لا يرفع يده.
يراقب زميلاً آخر يجيب، ربما بإجابة
أقل دقة من إجابته، ويحصل على
إطراء الأستاذ. يشعر بشيء يشبه
الغضب لكنه يبتلعه.

ثم تمدد الصمت إلى الفناء. حين
يجتمع الأصحاب في الاستراحة
ويتحدثون ويتضحكون، يجلس حمزة
على الحافة. يبتسم حين يبتسمون،
ويضحك حين يضحكون، لكنه لا

يبادر بالكلام. ينتظر أن يُسأل. وحين
يُسأل يُجيب بأقل عدد ممكن من
الكلمات.

ثم تمدد إلى البيت. حتى مع أمه،
حين تسأله عن يومه، صار يقول
«عادي» ويمضي. وحتى مع أبيه
الذي كان يحب أن يجلس معه بعد
العشاء ويتحدثان، صار حمزة يجد
أعذاراً للانسحاب مبكراً. الواجبات.
النوم. التعب.

الواقع أنه لم يكن متعباً من الجسد.
كان متعباً من التفكير. من الحساب

المستمر: ماذا أقول؟ كيف أقوله؟ هل
ستخرج الكلمات صحيحة؟ هل
سينتبه أحد إذا تعثّرت؟

هذا الحساب المتواصل يُنهك أكثر
من أي عمل جسدي.

وشياً فشيئاً، تحوّل حمزة. الطفل
الذي كان يملأ الزقاق بصوته
وضحكه وركضه صار طفلاً يراقب
من بعيد. يجلس على الرصيف ويرى
أصحابه يلعبون. يراقبهم يتشاجرون
على الكرة ويتصالحون ويضحكون
ويتدافعون. ويبقى هو على الرصيف.

في البداية كانوا يدعونه: «يا حمزة،
تعال! يا حمزة، لماذا تقف؟» فكان
يقول: «تعبت» أو «لا أشعر برغبة
في اللعب.» وبعد فترة توقفوا عن
الدعوة. ليس لأنهم لا يريدونه، بل
لأنهم اعتادوا رؤيته على الرصيف.
صار هذا هو حمزة الجديد. الولد
الهادئ. الولد الذي يراقب.

ولم ينتبه أحد إلى الفرق. أو ربما
انتبهوا لكنهم لم يعرفوا ما يقولون.

والأسوأ أن حمزة نفسه لم ينتبه في البداية. لم يشعر أنه يبني جداراً. شعر فقط أنه يحمي نفسه. وبين بناء الجدار والحماية خط رفيع جداً لا يراه الإنسان إلا حين يكون الجدار قد اكتمل من حوله من كل جانب.

الفصل الخامس — المرأة

اكتشف حمزة سراً في تلك الفترة.

اكتشفه بالصدفة، ذات ليلة حين ذهب إلى الحمام بعد منتصف الليل والبيت

غارق في الصمت. وقف أمام المرأة
يغسل وجهه، ثم رفع رأسه ونظر إلى
انعكاسه. وبدون أن يخطط لذلك،
بدون أن يفكر، بدأ يتحدث.

تحدّث بطلاقة.

الكلمات خرجت سهلة ومتدفقة كما لم
تفعل منذ وقت طويل. لا تعثّر. لا
توقف. لا حرف يتكرر في غير
إرادته. مجرد كلام عادي، إنسان
يتحدث بصوت طبيعي.

بقي أمام تلك المرأة وقتاً طويلاً.
يتحدث ويتوقف ويتحدث. يقرأ من
كتاب يحمله. يروي قصة اخترعها.
يشرح درساً كأن أمامه فصلاً كاملاً.
وفي كل مرة، نفس الشيء: الكلمات
تخرج بسلاسة حين لا يكون هناك
أحد ينظر إليه.

إذاً المشكلة ليست في لسانه. ليست
في صوته. ليست في عقله.

المشكلة في العيون.

عيون الآخرين حين تنظر إليه تصنع
شيئاً في داخله، تُشعل شيئاً، تُحرك
ذلك الخوف الساكن وتُوقظه. وحين
يستيقظ الخوف، ينام الكلام.

صار يقف أمام المراة كل ليلة. صار
هذا طقسه السري الذي لا يعرفه
أحد. يغلق باب الحمام بهدوء حتى لا
يوقظ أحداً، ويقف أمام انعكاسه
ويتحدث. يتدرب على الكلام الذي لا
يستطيع قوله في الخارج. يقول
الأشياء التي تراكمت في داخله طوال
اليوم ولم تجد طريقها للخروج.

يشتكي ويحلم ويضحك وأحياناً يكاد
يبكي.

لكن كل ذلك كان أمام مرآة.

وحين يفتح الباب ويعود إلى غرفته،
يعود الصمت معه. لأن العالم
الخارجي ليس مرآة. العالم الخارجي
مليء بعيون حقيقية وأحكام حقيقية
وضحكات حقيقية.

وفي تلك الفترة بدأت بذرة سامة تنمو
في داخله ببطء. بذرة لم يزرعها أحد

بقصد، لكنها وجدت في خوفه تربةً
خصبة.

بدأ يقارن نفسه بالآخرين. يرى
زملاءه يتكلمون أمام الفصل بثقة،
يرى بعضهم يتحدث مع الأستاذ
ويضحك، يرى أصحابه في الفناء
يتجادلون ويرفعون أصواتهم بلا
خوف. ويسأل نفسه: ما الذي يملكونه
أنا لا أملكه؟ ما الذي نقص في؟

وحين تجلس هذه الأسئلة في رأسك
بلا إجابات، تبدأ تخلق إجاباتها

بنفسها. وغالباً تكون تلك الإجابات
قاسية.

الفصل السادس — العالم الذي لا
يفهم

حاول مرة أن يشرح.

كان مع صاحبه كريم، الذي كان
أقرب أصحابه في تلك الفترة. جلسا
على الدرج أمام المدرسة في وقت
الاستراحة، يأكلان. وفي لحظة ما،

بدون أن يخطط، قال حمزة: «ماذا يحدث لي حين أقرأ أمام الناس؟»

نظر إليه كريم.

«ماذا تقصد؟»

حاول حمزة أن يشرح. أن هناك شيئاً يحدث حين تكون العيون عليه. شيء يُجمّد الكلمات في مكان ما قبل أن تصل إلى فمه. شيء بارد يتحرك في صدره ويجعل حتى التنفس يبدو صعباً.

أنصت كريم. ثم قال بكل بساطة
وبنية طيبة تماماً: «أظنك تفكر
كثيراً. الكلام هو الكلام. نتحدث
وانتهى الأمر.»

الكلام هو الكلام. نتحدث وانتهى
الأمر.

نظر حمزة إليه ولم يقل شيئاً. ابتسم
ابتسامة خفيفة وأكمل أكله.

لأنه أدرك في تلك اللحظة أن شرح
هذا الشعور لمن لم يعيشه يشبه أن
تشرح لشخص لم يغرق يوماً كيف
يبدو الغرق. الكلمات موجودة لكنها
لا تنقل الشعور الحقيقي. الخوف
الحقيقي. ذلك الإحساس بأن جسدك
يتأمر ضدك في اللحظة التي تحتاجه
فيها أكثر.

كريم لم يكن قاسياً. كريم كان يحاول
أن يساعد بالطريقة الوحيدة التي
يعرفها. لكن مساعدته تلك، بكل
بساطتها وحسن نيتها، جعلت حمزة

يشعر بوحدة أعمق مما كان يشعر به
قبلها.

لأن الوحدة الحقيقية ليست أن لا
يكون حولك أحد. الوحدة الحقيقية هي
أن يكون حولك الناس ومع ذلك لا
يفهمك أحد.

ومن ذلك اليوم توقف حمزة عن
المحاولة. توقف عن الشرح. توقف
عن البحث عمّن يفهم. وأغلق باباً
إضافياً من أبواب نفسه.

القسم الثالث: طنجة

الفصل السابع — المدينة الغربية

الانتقال إلى طنجة جاء في صيف
حار.

أخبره أبوه بالأمر بهدوء ذات مساء.
فرصة عمل. مدينة جديدة. بداية
جديدة للعائلة. وابتسم وهو يقول ذلك
كأن الخبر سار.

لم يبك حمزة. لكنه في تلك الليلة
خرج إلى الزقاق لآخر مرة ووقف
فيه وحده في الظلام. شمَّ هواءه
وسمع صمته وحفظ تفاصيله.
الحجارة المتآكلة على الجدار.
الشجرة التي كسر غصناً منها يوماً
فعاتبه الجيران. البقعة على الأرض
حيث كانوا يضعون الحجارة أعمدةً
لملعبهم.

ودَّعها في صمت كما يودّع الإنسان
الأشياء التي يعلم أنه لن يراها مجدداً.

طنجة كانت مختلفة بكل شيء. البحر
الذي لم يكن معتاداً عليه، يسمع
صوته من بعيد في الليل. الأحياء
التي تمتد وتتشعب بطريقة مربكة.
اللهجة التي فيها كلمات لا يعرفها.
وجوه لا تعرفه ولا تعرف اسمه ولا
تعرف شيئاً عنه.

وهذا الأخير كان يمكن أن يكون
فرصة.

فكّر حمزة: لا أحد هنا يعرف عن
تلك الحصّة. لا أحد سمع تلك
الضحكة. لا أحد يحمل في ذاكرته

صورة حمزة واقفاً أمام الفصل
ولسانه يتعثّر. هو هنا مجرد وجه
جديد. يمكنه أن يبدأ من الصفر.
يمكنه أن يكون شخصاً مختلفاً.

لكن أسبوعاً واحداً في المدرسة
الجديدة كان كافياً ليكتشف الحقيقة.

حين طلب الأستاذ من التلاميذ
تعريف أنفسهم أمام الفصل، شعر
حمزة بذلك الشيء البارد يتحرك في
معدته مجدداً. نفس الإحساس. نفس
الخوف. نفس التآمر بين جسده
وصوته ضده.

الجبـال تركها في الأطلس. لكن
الخوف جاء معه في نفس الحقيقة.

لأن الخوف لا يسكن في الأماكن.
يسكن فيك أنت. وأينما رحلت يرحل
معك.

الفصل الثامن — الصديق الأول

يوسف لم يكن يبدو مميزاً من
الخارج.

طفل عادي الطول، شعر قصير،
يلبس نفس الملابس التي يلبسها كل
أطفال الحي تقريباً. يجلس في الصف
المجاور لحمزة في الفصل ويحب
كرة القدم وأحياناً ينام أثناء حصة
التاريخ فيوقظه الأستاذ فيضحك
الجميع وهو يضحك معهم.

تعرفاً بطريقة بسيطة. سقط قلم حمزة
تحت المقعد، فمدّ يوسف يده وأعطاه
إياه. شكره حمزة بهمس. قال يوسف
بصوت عادي: «هل أنت ساكن هنا
منذ وقت طويل؟» قال حمزة: «لا،

جديد. « قال يوسف: «جيد، هذا الحي لطيف.»

وانتهت المحادثة.

لكنها تكررت في اليوم التالي. ثم الذي يليه. كلمات قصيرة، أسئلة بسيطة، ردود لا تحتاج خطباً. شيئاً فشيئاً صاروا يجلسان معاً في الاستراحة.

ما جعل يوسف مختلفاً لم يكتشفه حمزة إلا بعد فترة.

في إحدى الاستراحات تلعثم حمزة
وهو يحكي شيئاً. توقف في منتصف
الجملة، حاول مرة أخرى، وتعثّر من
جديد. وانتظر. انتظر تلك النظرة،
تلك الابتسامة المكتومة، ذلك التبديل
في ملامح الوجه الذي يعني أن
الشخص الآخر لاحظ.

لكن يوسف لم يفعل شيئاً من ذلك.

نظر إليه ببساطة وانتظر حتى أكمل.
ثم أجاب على ما قاله كأن شيئاً لم

يحدث. كأن التعثر لم يكن موجوداً.
كأن حمزة مجرد إنسان عادي
يتحدث.

ذلك الشيء البسيط الذي فعله يوسف،
أو بالأحرى الذي لم يفعله، كان أعظم
هدية أُهديت لحمزة في سنوات. لأن
ما يحتاجه الإنسان أحياناً ليس من
يُصلحه أو يساعده أو يُشجعه. يحتاج
فقط من يراه إنساناً عادياً.

لأول مرة منذ وقت طويل، شعر
حمزة بشيء يشبه الارتياح الحقيقي.

لكن الأقدار لها كلمتها الأخيرة دائماً.
بعد أشهر أخبره يوسف أن عائلته
ستنتقل إلى مدينة أخرى. أبوه نُقل في
عمله. سيرحلون في نهاية الشهر.

قال حمزة: «حسناً.» وابتسم.

وفي الليل لم يَنم.

الفصل التاسع — المقعد الأخير

بعد رحيل يوسف، صارت لحمزة
عادة ثابتة لا يتخلى عنها.

في كل فصل جديد، في كل يوم
دراسي جديد، حين يدخل الباب
ويرى المقاعد أمامه، يتجه مباشرة
إلى آخر صف. يجلس في الركن.
يضع حقيبته أمامه كحاجز إضافي.
ويتنفس.

المقعد الأخير له مزايا يعرفها من
جربته. بعيد عن الأستاذ فلا يُسأل
كثيراً. بعيد عن السبورة فلا يُطلب
منه الخروج إليها. بعيد عن الباب فلا

أحد يراه حين يدخل ويخرج. وما
أمامه ظهور التلاميذ لا وجوههم، فلا
يرى العيون التي تحكم.

لكن المقعد الأخير له ثمن أيضاً. لا
يراك الأستاذ حين ترفع يدك، لذلك لا
ترفعها. لا يصلك الكلام بوضوح
أحياناً، لذلك تفوتك أشياء. وتعتاد
على النظر إلى العالم من خلف
ظهور الآخرين. تعتاد على أنك دائماً
في الخلف.

وهذه العادة، مثل كل العادات، تبدأ
كقرار وتنتهي كشخصية. تبدأ

كاختيارٍ واعٍ وتصير مع الوقت هي
أنت. يصير الناس يتوقعونك في آخر
الصف، وتصير أنت تتوقع نفسك
هناك. وتنسى أن ثمة خياراً آخر.

في تلك الفترة كان حمزة يراقب
كثيراً. جلوسه في الخلف منحه مسافة
تجعل المراقبة سهلة. يرى كيف
يتحدث الآخرون. يرى كيف يمشون
ويجلسون ويضحكون. يرى من يملك
ثقة وكيف تبدو الثقة من الخارج.
ويحاول أن يفهم السر.

لكن المراقبة وحدها لا تُعَلِّم. تُعَلِّمُك
كيف يبدو الشيء من الخارج، لكنها
لا تُعْطِيكَ إِيَّاه. مثل أن تشاهد شخصاً
يسبح ألف مرة ثم تقفز في الماء فتجد
أن جسدك لم يتعلم السباحة.

كان حمزة يعرف كيف تبدو الثقة.
لكنه لم يعرف كيف تُشعر.

القسم الرابع: الحجر الصحي

الفصل العاشر — أربعة جدران

حين أعلنوا عن الحجر الصحي،
فرح كثيرون.

فرحوا لأن المدارس ستغلق. لأن
الشوارع ستهدأ. لأن العالم سيأخذ
نفساً طويلاً بعد أن ظل يركض بلا
توقف. ورأى حمزة أصحابه
يتداولون الأخبار بحماس، يحسبون
الأيام، يتخيلون أسابيع كاملة أمام
الشاشات بلا دراسة ولا استيقاظ
مبكر.

لكن حمزة لم يفرح.

ليس لأنه يحب المدرسة بالضرورة.
بل لأنه كان يفهم شيئاً لا يفهمه
الآخرون: أن سجنه لم يكن في
الخارج.

السجن الحقيقي كان في داخله. وهذا
النوع من السجون لا تغلقه الحكومات
ولا تفتحه. يبقى معك في كل مكان،
في كل وقت، خلف كل باب تغلقه.

في الأسبوع الأول حاول أن يجد
إيقاعاً. استيقظ في وقت معقول. قرأ

قليلاً. شاهد شيئاً على الهاتف. تناول
الغداء مع العائلة. لكن كل هذا كان
يشبه ترتيب أثاث غرفة يعلم أن
جدرانها تتقلص.

أمه كانت تحاول. تطرق بابه. تسأله
إن يريد شيئاً. أحياناً تضع له كأس
شاي على المكتب دون أن تقول شيئاً
وترحل بهدوء. وهو كان يسمع
خطواتها في الممر ويتمنى لو
يستطيع أن يفتح الباب ويقول لها: أنا
لست بخير. أنا لا أعرف ما بي. أنا
خائف من شيء لا أعرف اسمه.

لكنه كان يمسك الكأس ويشرب
ويبقى صامتاً.

الأيام في الحجر لها طعم مختلف.
ليست كأيام الإجازة التي لها بداية
ونهاية وأشياء تملؤها. أيام الحجر
فارغة بطريقة ثقيلة. تمتد وتمدد
وتذوب في بعضها حتى لا تعرف إن
كان اليوم الثلاثاء أم الخميس، أم أن
هذا الأسبوع الثاني أم الثالث.

وفي تلك الفراغات الثقيلة، وجد
حمزة نفسه وحيداً مع شيء كان
يهرب منه طويلاً.

وجد نفسه وحيداً مع أفكاره.

الفصل الحادي عشر — الرسائل
التي لم تُرسل

بدأ يكتب بالصدفة.

كان يبحث في دفتر قديم عن صفحة فارغة ليكتب عليها شيئاً لا يتذكر ما هو الآن. ووجد الدفتر شبه فارغ. وبدلاً من أن يكتب ما جاء من أجله، وجد يده تتحرك وحدها.

كتب: «يوسف،»

وتوقف.

نظر إلى الاسم على الورقة. ثم
واصل.

«لا أعرف لماذا أكتب إليك. أعرف
أنك لن تقرأ هذه الورقة. لكنني أحتاج
أن أتحدث مع أحد، وأنت الوحيد
الذي خطر في بالي.»

وبعد أن بدأ لم يستطع أن يتوقف.

كتب عن الحجر وعن الصمت وعن
الخوف الذي صار أثقل من المعتاد
لأنه لم يعد يستطيع الهروب منه
بالانشغال. كتب عن تلك الليالي التي
لا ينام فيها وعن السقف الذي صار
يعرف كل تفاصيله. كتب عن أمه
التي تطرق الباب وعن إجاباته
القصيرة التي لا تقول شيئاً.

حين انتهى كان قد ملأ ثلاث
صفحات.

قرأها مرة. ثم مزّقها.

لكن في اليوم التالي كتب مرة أخرى.
هذه المرة لأمه. قال لها فيها كل ما لم
يستطع قوله على مدى سنوات. عن
الضحكة الأولى في الفصل. عن
الخوف الذي لا يغادر. عن المرأة
وعن المقعد الأخير وعن يوسف. عن
شعوره بأنه يعيش خلف زجاج، يرى
العالم لكنه لا يستطيع لمسه.

حين انتهى جلس ينظر إلى الأوراق.

ثم مزّقها هي الأخرى.

كتب لنفسه. كتب لأصحاب لم يرههم
منذ وقت طويل. كتب لأستاذ من
المدرسة القديمة في الأطلس كان
يحبّه قبل أن يصبح الفصل مكاناً
مرعباً. كتب رسائل لأشخاص لا
يعرفهم، يتخيلهم يقرؤون ما كتبه
ويفهمون.

وكل رسالة في النهاية تنتهي بنفس
المصير. يقرأها مرة أو مرتين.

يجلس مع ما فيها لحظة. ثم تمزيق،
وقطع صغيرة تملأ سلة المهملات.

لكنه لاحظ شيئاً.

في الأيام التي يكتب فيها، يكون النوم
أسهل قليلاً. ليس سهلاً، لكن أسهل.
كأن الكتابة تُفرغ شيئاً كان ممتلئاً
جداً. كأن الكلمات على الورق تأخذ
حيزاً كانت تشغله في رأسه وتثقله.

ولم ينتبه في تلك اللحظة إلى ما تعنيه
هذه الملاحظة البسيطة. لم ينتبه إلى

أن الكتابة كانت تفعل ما لم يستطع
الكلام أن يفعله. لم ينتبه إلى أن
صوته الحقيقي ربما كان يسكن في
يده لا في لسانه.

القسم الخامس: السقوط الكبير

الفصل الثاني عشر — الانهيار

الثالثة إعدادي كانت سنة أثقل من كل
ما سبقها.

ليس لأن الدراسة كانت أصعب، وإن كانت كذلك. وليس لأن الأساتذة كانوا أشد، وإن كان بعضهم كذلك. بل لأن شيئاً تراكم طوال سنوات، طبقة فوق طبقة، خوف فوق خوف، صمت فوق صمت، وصارت الطبقات ثقيلة جداً على كتفين لم تستعدا لهذا الثقل.

الصباح كان الأصعب.

يستيقظ وأول شيء يأتي إلى رأسه هو قائمة بكل ما قد يحدث اليوم وكل ما يمكن أن يسوء. هل هناك قراءة جماعية؟ هل سيطلب أحد الأساتذة

تقديمًا؟ هل ستكون هناك مناقشة في
الفصل؟ كان يصنع في رأسه خريطة
لليوم ويضع على كل نقطة خطرة
علامة تحذير.

وكان يصل إلى المدرسة منهكاً وهو
لم يفعل شيئاً بعد.

ثم الدراسة نفسها. القلق أكل التركيز.
حين يجلس في الفصل ويشرح
الأستاذ درساً، نصف رأس حمزة
يسمع الشرح والنصف الآخر منشغل
بحسابات أخرى. هل سيُسأل؟ ماذا
سيقول إذا سُئل؟ كيف سيجيب إذا

تعثّر؟ وفي نهاية الحصة يجد أنه فهم
نصف ما قيل أو ربعه.

ثم الليل. الأرق الذي صار رقيقاً
دائماً. يستلقي على السرير ويبدأ
رأسه يستعرض اليوم الماضي: هل
قال شيئاً خاطئاً؟ هل بدا غريباً؟ هل
لاحظ أحد ذلك الموقف في الممر؟ ثم
يبدأ يستعرض الغد: ماذا سيحدث؟
ماذا يجب أن يقول؟ كيف يتجنب؟

ساعات تمر وهو يُدير هذه الأفكار
في دائرة، واحدة تقود إلى أخرى،

وفي لحظات يشعر بأن رأسه لن
يتوقف أبداً.

النوم حين يأتي يكون متأخراً
ومضطرباً. والصبح حين يأتي
يكون ثقيلاً. والقائمة تبدأ من جديد.

لم يكن يعرف في تلك الأيام أن لهذا
الشيء اسماً. لم يكن يعرف أن ما
يعيشه يعيشه كثيرون، وأن له أسباباً
وله حلولاً. لم يكن يعلم أن ما يحدث
في رأسه ليس ضعفاً في شخصيته
ولا عيباً في تكوينه. كان يعتقد

ببساطة أن هذا هو هو، وأن هذا هو
ما سيكون عليه إلى الأبد.

وهذا الاعتقاد كان أشد قسوة من كل
شيء آخر.

الفصل الثالث عشر — الرسوب

جاءت النتائج في يوم عادي.

لوحة أمام المدرسة. تلاميذ يتدافعون.
أصوات مختلطة، فرح هنا وصمت

هناك. اقترب حمزة ببطء، فتح عينيه
على الأسماء، ووجد اسمه.

وبقي ينظر إليه وقتاً أطول مما
ينبغي.

راسب.

الكلمة بسيطة. لكنها وقعت عليه
كأنها شيء ثقيل سقط من ارتفاع
عالٍ.

لم يتحرك من مكانه مباشرة. انتظر
حتى ابتعد التلاميذ الآخرون. ثم
مشى. لم يكن يعرف إلى أين. مشى
فقط.

في الطريق إلى البيت، والشوارع
تمر من حوله، كان يحاول أن يفهم
ما يشعر به. لم يكن ما يشعر به
غضباً. ولم يكن مفاجأة حقيقية. كان
شيئاً أشبه بالتأكيد. كأن جزءاً منه
كان يعرف أن هذا سيحدث، وكان
ينتظره، وها قد حدث.

أخبر أمه. وقفت أمامه لحظة ثم
قالت: «الله كريم.» ولم تقل شيئاً
آخر. أبوه سمع الخبر في المساء
وأطال الصمت ثم قال: «في العام
القادم تُعيد.» كلمات قصيرة وبسيطة
وحسنة النية.

لكن في تلك الليلة، بعد أن انطفأت
أنوار البيت وصار الصمت مطبقاً،
بكى حمزة.

بكى بحرقة لم يكن يعلم أنها كانت
محتبسة بداخله بهذه الشدة. بكى لذلك
الطفل الذي كان يلعب الكرة في
الزقاق ولا يعرف الخوف. بكى لتلك
الأحلام الساذجة بالملاعب

والتصفيق. بكى للسنوات التي راح
فيها يراقب من المقعد الأخير بدلاً من
أن يعيش. بكى لكل الكلمات التي
ابتلعها ولكل الرسائل التي مزّقها
ولكل الأبواب التي أغلقها خلفه.
وبكى لأنه لم يكن يعرف كيف
يتوقف.

الفصل الرابع عشر — الليلة السوداء

بعد ذلك بأيام، في ليلة لا تختلف عن
سواها في الشكل لكنها تختلف في
الثقل، جلس حمزة على حافة سريره
في الظلام.

لم يكن يبكي هذه المرة. كان أهدأ من ذلك. وأحياناً الهدوء أخطر من البكاء، لأنه يعني أن الشخص توقف عن المقاومة.

جلس واسترجع.

الطفل الذي كان في الأطلس.
الضحكة في الفصل. سنوات الصمت
المتراكمة طبقة فوق طبقة. يوسف
الذي جاء ثم رحل. المقعد الأخير في
كل فصل. الحجر الصحي والرسائل
الممزقة. والرسوب الذي جاء ليضع
ختماً على كل ذلك.

وفي منتصف هذا الاستعراض
الطويل، سأل نفسه سؤالاً كان يهرب
منه دائماً:

هل سأبقى هكذا إلى الأبد؟

السؤال معلق في الغرفة لا جواب له.
والصمت الذي يرد على السؤال يبدو
إجابة في حد ذاته. حمزة الذي يعرفه
لا يرى طريقاً مختلفاً. لا يرى نسخة
أخرى منه يمكن أن توجد. لا يعرف
كيف يصبح شخصاً لا يخاف.

بقي على حافة السرير حتى بدأ الفجر
يُسْرِبُ ضوءه الشاحب من تحت
الستارة.

ثم استلقى.

ولم ينم.

لكنه قرّر شيئاً واحداً في تلك الليلة.
قرّره بهدوء لا بحماس، بإرادة خفيفة
لا بعزم الأبطال. قرّر أنه لا يريد أن
تكون سنة أخرى مثل هذه السنة. لا
يعرف كيف يمنع ذلك. لا يعرف ما
الذي سيفعله. لكنه لا يريد.

وأحياناً «لا أريد» هذه، هي أولى
خطوات شيء أكبر بكثير.

القسم السادس: الضوء

الفصل الخامس عشر — الأشخاص

الذين أنقذوني

لم يأتوا بطريقة مسرحية.

لم يكن هناك يوم مشرق وموسيقى
وشخص يمد يده ويقول: أنا هنا
لأنقذك. الأشياء الحقيقية التي تُغير
الحياة نادراً ما تأتي بهذا الشكل. تأتي
في تفاصيل صغيرة، في لحظات لا
تبدو مهمة حين تحدث، لكنك تفهم
أهميتها بعد وقت طويل.
جاؤوا بأشكال مختلفة.

سلمى التي جلست بجانبه في الفصل
يوماً وقالت وهي تفتح كتابها: «لماذا
تجلس هنا دائماً؟» بنبرة لا تحكم ولا
تستغرب. مجرد فضول بسيط. وحين
أجاب بإجابة مختصرة، سمعته كاملاً
كما لو كان قد قال خطبة.

وكريم، ليس كريم الأطلس بل كريم
آخر يحب الكتب ويُعيرها بلا شروط.
أعطاه مرة رواية وقال: «هل
قرأتها؟» قال: «لا.» قال: «خذها.
وإن لم تُعجبك أعدها.» وفي تلك
الرواية وجد حمزة شخصية تشبهه
بطريقة أربكته. شخصية تخاف
وتصمت وتعيش خلف جدار. ولأول
مرة أدرك أن ما يعيشه ليس غريباً
لدرجة أن لا يكتب عنه أحد.
ومنى التي لاحظت في إحدى المرات
أنه يبدو شاردَ الذهن ولم تسأله «ما
بك؟» بالطريقة التي تجعل السؤال
عبئاً. سألته ببساطة: «كيف حالك؟»

وانتظرت فعلاً. ولم تملأ الصمت
الذي جاء بعد سؤالها بكلام آخر. فقط
انتظرت.

ولأنها انتظرت، قال حمزة شيئاً لم
يقله منذ سنوات.

قال: «لست بخير، لكنني لا أعرف
لماذا.»

وهذه الجملة الصغيرة المترددة كانت
أول باب يفتحه من الداخل منذ وقت
طويل جداً.

هؤلاء لم ينقذوه بكلمات كبيرة. أنقذوه
بشيء أبسط وأعمق: جعلوه يشعرون أنه
ليس وحيداً في حمل ما يحمله. وأن
ما يحمله لا يجعله أقل إنسانية. وأن

هناك أناساً في هذا العالم قادرون
على أن يروه كما هو دون أن يفزعوا
أو يسخروا أو يتحولوا إلى أطباء
يحاولون إصلاحه.

وأحياناً هذا وحده يكفي لأن تمد يدك
نحو الباب.

الفصل السادس عشر — المواجهة
جاءت في حصة التعبير الشفهي.

كان الأستاذ يطلب من كل تلميذ أن
يتحدث لدقيقتين عن أي موضوع
يختاره. بسيط ومفتوح. ومع ذلك،
حين أعلن الأستاذ عن ذلك في بداية
الحصة، شعر حمزة بذلك الشيء
البارد المعتاد يتحرك في معدته.

الأسماء بدأت تُنادى واحداً واحداً.
وحمزة يجلس وينتظر. يحسب عدد
التلاميذ قبله. يراقب ساعة الحائط.
تلك الدقائق التي تمر ببطء يجعل كل
ثانية تبدو عمراً.
ثم نُودي اسمه.
قام.

وفي الطريق من مقعده إلى الأمام،
كانت هناك لحظة. لحظة قصيرة
جداً، بضع خطوات فقط. وفي تلك
اللحظة دار حوار صامت بينه وبين
نفسه.

قال الخوف: «ستتعثّر.

سيضحكون.»

وقال شيء آخر، شيء جديد لم يكن
موجوداً من قبل أو كان موجوداً لكنه
مكتوم: «ربما. لكنني سأحدث على
أي حال.»

وقف أمام الفصل.

نظر إلى الوجوه. رأى العيون.
وأحسّ بقلبه يضرب بقوة.

ثم فتح فمه وتحدث.

تحدث عن الأطلس. عن الزقاق وعن
الكرة المرقّعة. تحدث ببساطة كأنه
يحكي لشخص يعرفه.

وتعثّر. مرة. توقف. أخذ نفساً.
وأكمل.

لم يُكمل الدقيقتين. ربما أكمل دقيقة
وأكثر قليلاً ثم جلس.
لكنه لم يهرب.

حين جلس كان قلبه لا يزال يضرب
بسرعة. ويداه باردتان. ووجهه
ساخن. لكن كان هناك شيء آخر
أيضاً. شيء لم يجد له اسماً في تلك
اللحظة.

بعد وقت طويل أدرك أن اسمه كان:
أنا هنا. أنا ما زلت هنا.

الفصل السابع عشر — السقوط مرة أخرى

لا يوجد في الحياة الحقيقية يوم واحد تتغير فيه كل شيء ثم تسير الأمور بشكل مستقيم إلى الأبد.

هذا ما تقوله القصص أحياناً لكنه ليس ما تفعله الحياة.

الحياة تعود. الخوف يعود. الأيام الصعبة تعود.

بعد تلك الحصة بأسبوع كان هناك موقف آخر. في المقهى مع أصحابه الجدد، حين أراد أن يقول شيئاً مضحكاً ليشارك في الحديث، تعثر في منتصف الجملة وتوقف، وحين

أكملها لم تكن مضحكة بعد الآن.
فابتلع الإحراج ونظر إلى الطاولة.
وتلك الليلة لم يكن النوم سهلاً.

ثم مناقشة في حصة التاريخ حين
سأله الأستاذ رأيه فرأى نفسه يتعثر
والفصل ينتظر وأحسّ بذلك الشيء
المعتاد في صدره يُشتعل.

ثم اتصال هاتفي مع قريب لم يره منذ
زمن طويل، والقريب يتكلم بطلاقة
ويطرح أسئلة ويضحك، وحمزة
يجيب بكلمات قصيرة ويُحسُّ
بالإرهاق بعد أن ينتهي الاتصال.

الخوف لا يختفي في يوم. له جذور عميقة ومتشعبة. تقطع جذراً يعود الجذر من مكان آخر.

لكن الفرق الوحيد، وهو فرق صغير من الخارج وضخم من الداخل، هو أن حمزة لم يعد يُفسّر هذه العودات على أنها دليل على أنه لن يتغير أبداً. لم يعد يقول لنفسه: أنا هكذا وسأبقى هكذا.

صار يقول بدلاً من ذلك، أحياناً بصوت عالٍ وأحياناً في رأسه فقط: «اليوم كان صعباً. غداً يوم آخر.» هذه الجملة البسيطة لم تحل المشكلة. لكنها فتحت نافذة في الجدار.

القسم السابع: من صمت إلى صوت

الفصل الثامن عشر — الحقيقة

الحقيقة حين تأتي لا تأتي دائماً

كومضة مفاجئة.

أحياناً تأتي ببطء، تتكون قطرة

قطرة، حتى تصير يوماً واضحة

لدرجة تجعلك تتساءل كيف لم تكن

واضحة من قبل.

حقيقة حمزة تكوّنت على مدى أشهر.

كانت في تلك الليلة أمام المرأة حين

تحدث بطلاقة دون أن ينتبه. وفي

رسائله الممزقة التي كانت الكلمات

فيها تخرج سهلة على الورق. وفي

الفصل حين وقف وتعثّر وأكمل رغم ذلك. وفي الأصحاب الجدد الذين لم يسخروا. وفي كل مرة اكتشف أن ما كان يخافه لم يكن التلثم في حد ذاته.

حتى جاء ذلك المساء في غرفته، وهو يكتب في دفتره الجديد الذي لم يعد يُمزّق صفحاته، فكتب سؤالاً: ماذا أخاف حقاً؟

وجلس مع السؤال.

ثم كتب: أخاف أن ينظروا إليّ. أخاف أن يروا أنني لست مثلهم. أخاف أن يحكموا عليّ. أخاف أن يضحكوا. أخاف أن أكون أقل.

وبعد أن كتب كل هذا نظر إليه ورأى شيئاً لم يره من قبل.

في كل هذه الجمل، لم يُذكر التلعثم ولو مرة. التلعثم كان الشكل الذي ظهر فيه الخوف. لكن الخوف نفسه كان أقدم من التلعثم وأعمق. كان موجوداً حتى في تلك الليلة حين وقف أمام المرأة وتحدث بطلاقة ولم يكن هناك أحد لينظر إليه.

كان الخوف من الحكم. من أن يُرى. من أن يكون معيباً في عيون الآخرين.

والتلعثم كان الجرح الذي أيقظ هذا الخوف. لكنه لم يكن الجرح الأصلي.

هذا الإدراك لم يشفه في تلك الليلة.
لكنه غير شيئاً. لأنك حين تعرف ما
تحاربه بالضبط، تصبح المعركة
مختلفة. لا تحارب بعد الآن ظلاً لا
تستطيع الإمساك به. تحارب شيئاً له
اسم وملاح وجذور.

وما له جذور يمكن أن يُقتلع.

الفصل التاسع عشر — التحرر

التحرر لم يكن لحظة واحدة.

كان قرارات صغيرة متراكمة.

قرار أن يجلس في الصف الأوسط
بدلاً من الأخير. ليس الصف الأول،
فالبطولة ليست الهدف. فقط الصف

الأوسط. يرى وجوه الآخرين ويرون وجهه.

قرارٌ أن يردَّ على الرسالة الصوتية التي أرسلها له صاحبه برسالة صوتية بدلاً من كتابية. يسمع صوته يخرج من الهاتف ولا يحذف ويُعيد التسجيل عشر مرات. يُرسلها كما هي.

قرارٌ أن يقول لأمه ذات مساء، حين سألته كيف كان يومه وهو يمر في الممر: «تعبت اليوم.» كلمتان فقط. لكنهما صادقتان.

قرارٌ أن يتوقف عن الاعتذار عن نفسه. ذلك الاعتذار الصامت الذي

كان يحمله في كل مكان، كأنه يقول
لكل من يقابله: أعلم أنني أقل مما
يجب. وأعلم أن صوتي لا يخرج كما
ينبغي. وأعلم أنني أشغل مكاناً لست
مستحقاً له. توقّف عن هذا الاعتذار.

قرار أن يكتب ولا يُمزّق. كتب أشياء
لم يقرأها أحد لكنه لم يمزّقها. تركها
موجودة. لأن تمزيقها كان يعني محو
أثره. وتركها كان يعني: ما أفكر فيه
وما أشعر به يستحق أن يبقى.

وشياً فشيئاً، قرار بعد قرار، كل
قرار صغير لا يكاد يُلاحظ من
الخارج، بدأ شيء يتغير. ليس
التلثم. التلثم بقي. يظهر أحياناً

ويخف أحياناً. لكن ما تغيّر هو
العلاقة معه. بدلاً من أن يكون عدواً
يجب إخفاؤه، صار مجرد شيء
يحدث أحياناً. مثل أي شيء آخر
يحدث للناس.

وحين تتوقف عن محاربة جزء من
نفسك، تتحرر طاقة كبيرة كانت
تُصرف في تلك الحرب.
طاقة يمكن أن تُصرف في أشياء
أخرى.

الفصل العشرون — الكلمة الأخيرة
وصل اليوم.

دعته سلمى للمشاركة في فعالية
ثقافية تُنظمها المدرسة. أمسية
صغيرة. طلاب يتحدثون عن
تجاربهم. الجمهور من التلاميذ
والأساتذة وبعض الآباء.

قال لها: «لا أعرف.»

قالت: «فكّر.»

فكّر ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث قال:

«نعم.» لا يعرف لماذا قال نعم

بالضبط. ربما لأنه تذكّر تلك الليلة

على حافة السرير وسؤاله: هل

سأبقى هكذا إلى الأبد؟ وأراد أن

تكون الإجابة: لا. ليس بالكلام، بل

بفعل واحد حقيقي.

الليلة قبل الفعالية لم يَنم كثيراً. لكن
الفرق أنه لم يقضِ الليل في الهروب
من أفكاره. جلس معها. سمعها. قال
لها: «أعلم أنك موجودة. لكنني
سأتحدث غداً على أي حال.»

وفي اليوم التالي، وقف أمامهم.
جمهور ليس ضخماً. ربما سبعون
شخصاً. لكن في عينيه كانوا يبدوون
أضعاف ذلك. رأى الوجوه تنظر
إليه. رأى الأساتذة في الصف الأول.
رأى أصحابه في المنتصف. سلمى
ترسل إليه نظرة تقول: أنا هنا.
أخذ نفساً.

وتحدث.

تحدث عن طفل في جبال الأطلس
كان يحلم بالملاعب. عن يوم في
فصل دراسي تغيّر فيه كل شيء. عن
سنوات من المقعد الأخير. عن
رسائل كان يكتبها ثم يُمزّقها. عن ليلة
جلس فيها وحيداً يسأل نفسه إن كان
سيبقى هكذا إلى الأبد.
وتعثّر. مرة أولى في البداية. ثم مرة
ثانية في المنتصف.
توقف. وانتظر. ولم يهرب.
وأكمل.
لم يضحك أحد.

لا لأنهم كانوا مهذبين فقط. بل لأن ما
قاله لم يكن مضحكاً. كان حقيقياً.
والحقيقة حين تُقال بصدق لا تستدعي
الضحك. تستدعي الصمت أحياناً.
وأحياناً شيئاً أعمق من الصمت.
وحين أنهى كلامه بجملته الأخيرة،
جملة تشكَّلت على لسانه دون أن
يكون قد خطَّط لها:

«كنت أظن أن صوتي ضاع... لكن
الحقيقة أنني أنا من كنت مختبئاً خلف
خوفي.»
صمت.

ثم تصفيق بدأ خافتاً وصار أعلى.

لكن حمزة لم يكن يسمع التصفيق.
كان يسمع شيئاً آخر. شيئاً صامتاً جداً
من الداخل. شيء يشبه صوت باب
قديم يُفتح أخيراً بعد سنوات طويلة
من الإغلاق.

لم يكن مشفياً تماماً. لم يكن منتهياً من
كل شيء. كان يعلم أن الخوف
سيعود أحياناً وأن الأيام الصعبة
ستعود وأن بعض الليالي ستبقى
طويلة.

لكنه كان واقفاً هنا. بصوته. بتعثره.
بكل ما هو.

وهذا كان كافياً.

*ليست الشجاعة أن لا تخاف، بل أن
تتقدم رغم خوفك.